

مجمع الأمثال

361 - إِنْ غَدَاً لِنَاطِرِهِ قَرِيبٌ .

أي لمنتظره يقال : نَظَرْتُهُ أي انتظرته وأول من قال ذلك قُرَاد بن أَجْدَعَ وذلك أن النعمان بن المنذر خرج يتصيد على فرسه اليَحْمُوم فأجراه على أَثَرِ عَيْر فذهب به الفرس في الأرض ولم يقدر عليه وانفرد عن أصحابه وأخذته السماء فطلب مَلَجاً ياجاً إليه فدُفِعَ إلى بناء فإذا فيه رجل من طيء يقال له حَنْظَلَة ومعه امرأة له فقال لهما : هل من مَأْوَى فقال حنظلة : نعم فخرج إليه فأنزله ولم يكن للطائي غير شاة وهو لا يعرف النعمان فقال لامرأته : أرى رجلاً ذا هيئة وما أَخْطَلَقَهُ أن يكون شريفاً خطيراً فما الحيلة ؟ قالت : عندي شيء من طحين كنت ادَّخرته فاذبح الشاةَ لِأَتُخِذَ من الطحين مَلَسَةً قال : فأخرجت المرأة الدقيق فخبزت منه مَلَسَةً وقام الطائي إلى شاته فاحتلبها ثم ذبحها فاتخذ من لحمها مَرَقَةً مَضِيرَةً وأطعمه من لحمها وسقاه من لبنها واحتال له شراباً فسقاه وجعل يُحَدِّثُهُ بقية ليلته فلما أصبح النعمان لبس ثيابه وركب فرسه ثم قال : يا أخا طيء اطلب ثَوَابَكَ أنا الملك النعمان قال : أفعل إن شاء الله ثم لحق الخيل فمضى نحو الحيرة ومكث الطائي بعد ذلك زماناً حتى أصابته نَكْبَةٌ وَجَّهَهُدَ وساءت حاله فقالت له امرأته : لو أتيتَ الملكَ لأحسن إليك فأقبلَ حتى انتهى إلى الحيرة فوافق يومَ بؤس النعمان فإذا هو واقف في خَيْلِهِ في السلاح فلما نظر إليه النعمان عرفه وساءه مكانه فوقف الطائي المنزولُ به بين يدي النعمان فقال له : أنت الطائي المنزول به ؟ قال : نعم قال : أفلا جِئْتَنِي في غير هذا اليوم ؟ قال : أَبَيْتَ اللعن وما كان علمي بهذا اليوم ؟ قال : وإني لو سَدَجَ لي في هذا اليوم قابوسُ ابني لم أجد بُدّاً من قتله فاطلب حاجَتَكَ من الدنيا وَسَلِّمْ ما بدا لك فإنك مقتول قال : أَبَيْتَ اللعن وما أصنع بالدنيا بعد نفسي . قال النعمان : إنه لا سبيل إليها قال : فإن كان لا بدَّ فأجِّلْني حتى أُلِمَّ بأهلي فأوصي إليهم وأهئيئ حالهم ثم أنصرف إليك قال النعمان : فأقم لي كَفِيلاً بموافاتك فالتفت الطائي إلى شريك بن عمرو بن قيس من بني شيبان وكان يكنى أبا الحَوَوْفَزَان وكان صاحب الردافة وهو واقف بجانب النعمان فقال له : [ص 71] .

يا شريكا يا ابن عمرو ... هل من الموت مَحَالَة .
يا أخا كل مُضَافٍ ... يا أخا مَنٍ لا أخا له .
يا أخا النعمان فُكَّ اليوم ضَيْفًا قد أتى له .
طالما عالج كرب الموت لا ينعم باله .

فأبى شريك أن يتكفل به فوثب إليه رجل من كلب يقال له قُرَاد بن أَجْدَع فقال للنعمان :
أبيت اللّعن هو عليّ قال النعمان : أفعلت ؟ قال : نعم فضمّنه إياه ثم أمر للطائي
بخمسمائة ناقة فمضى الطائي إلى أهله وجعلَ الأجلَ حولا من يومه ذلك إلى مثل ذلك
اليوم من قابل فلما حال عليه الحولُ وبقي من الأجل يوم قال النعمان لقُرَاد :
ما أراك إلا هالكا غداً فقال قُرَاد : .

فإن يك صدّركُ هذا اليوم ولّى ... فإنّ غداً لناظره قريب .
فلما أصبح النعمان ركب في خيله ورَجَله متسلحاً كما كان يفعل حتى أتى الغرّيّين
فوقف بينهما وأخرج معه قُرَادا وأمر بقتله فقال له وزراؤه : ليس لك أن تقتله حتى
يستوفي يومه فتركه وكان النعمان يشتهي أن يقتل قُرَادا ليُفْلِتَ الطائي من القتل فلما
كادت الشمس تَجربُ وقُرَاد قائم مُجرّد في إزار على النّطّاع والسياف إلى جنبه
أقبلت امرأته وهي تقول : .

أيا عيّن بكى لي قُرَاد بن أَجْدَع ... رهينا لقتلٍ لا رهينا مُودّعاً .
أنته المنايا بَغْثَةً دون قومه ... فأمسى أسيراً حاضراً البيّتِ أضْرَعاً .
فبينما هم كذلك إذ رفع لهم شخص من بعيد وقد أمر النعمان بقتل قراد فقبل له : ليس لك أن
تقتله حتى يأتيك الشخص فتعلم من هو فكفّ حتى انتهى إليهم الرجل فإذا هو الطائي فلما
نظر إليه النعمان شقّ عليه مجيئه فقال له : ما حملك على الرجوع بعد إفلاتك من القتل
؟ قال : الوفاء قال : وما دَعَاكَ إلى الوفاء ؟ قال : ديني قال النعمان : فاعرضْها
عليّ فعرضها عليه فتنصر النعمان وأهلُ الحيرة أجمعون وكان قبل ذلك على دين العرب فترك
القتل منذ ذلك اليوم وأبطل تلك السُّنّة وأمر بهدم الغرّيّين وعفا عن قُرَاد
والطائي وقال : وإني ما أدري أيها أوفى وأكرم أهذا الذي نجا من القتل فعاد أم هذا الذي
ضمنه ؟ وإني لا أكون ألامّ الثلاثة فأنشد الطائي يقول : .

ما كُنْذَرْتُ أُخْلِفُ ظنه بعد الذي ... أسدّى إلى من الفَعَال الخالي .
ولقد دَعَتْنِي للخلاف ضلّالتي ... فأبَيْتُ غيرَ تمجّدِي وفعالي [ص 72] .
إني امرؤ منّي الوفاءُ سَجِيّة ... وجزاء كل مكارم بَذّال .
وقال أيضاً يمدح قُرَادا : .

ألا إنما يسمو إلى المجد والعُلا ... مخاريقُ أمثال القُرَاد بن أَجْدَع .
مخاريقُ أمثال القراد وأهله ... فإنهمُ الأخيار من رَهْطِ تبعاء